القصص

قصة مصرية

الأعمى ...

[تتمة ما نشر في العدد الماضي]

بقلم محمود البدوي

بقي الأعمى في المسجد بعد أن فرغ المصلون من صلاة العشاء بساعة ، ثم مشى الى جانب المنبر فتناول عصاه وأم الباب ، ولما بلغ عتبته سمع صوت الدلو في البئر ، فنصب قامته وأرهف سمعه .. لقد جاءت جميلة على عادتها ، ولكنها متأخرة قليلاً هذه الليلة . واستمر واقفاً وسمعه إلى الماء المتقاطر من الدلو كدفعات المطر غب سحاب ورعد ؛ ثم انقطع صوت الماء ، فأدرك أنها ملأت الجرة ، فدفع الباب وخرج ، ومضى تحت جدار المسجد خطوات ... ثم توقف عن سيره وأخذ يفكر ... ثم ارتد إلى حيث كان ، خائفاً الخطى كأنما يسوقه سائق ... وعطف على البئر وقلبه شديد الخفقان

« جميلة ... »

« نعم ... »

« أملأت الجرة ؟ »

« أجل ! »

« وذاهبة إلى البيت ؟ »

« أجل ! »

وكانت الجرة على رأسها ، وقد تهيأت للسير ، فاستدارت ووقفت ... ...

ومد عنقه وقال :

« سأروح معك من غرب البلد ... لأن كلاب الشيخ عبد الكريم عادت من العزبة ... وهي تقطع عليّ الطريق »

« هيا ... ... »

ومشيا صامتين والليل ساكن والقرية نائمة ، والظلام مخيم ؛ حتى أحس بأنفاسه خلصت ، فأدرك أنهما خرجا إلى الخلاء . وبعد خطوات سمع حفيف الزرع في عيدان الذرة ، فأيقن أنهما قربا من الحقول ، وسأل وقلبه يرجف :

« أوصلنا بستان الشيخ حسين ؟ »

« قربنا ... ... »

ولم يكن ألف هذه الطريق ، وإن يكن يعرف أن هناك قناة صغيرة تمتد بين البستان وحقل الذرة ، وعليهما أن يعبراها لينحدرا منها إلى جنوب القرية ، ثم إلى حيهما . وكان منذ أن غادر البئر واقفاً تحت تأثير خواطر عاصفة ، اشتغل لها رأسه ، وجاش صدره ؛ فكان يتخلف عنها قليلاً ويجعلها تتقدمه خطوات . فهذه هي المرة الأولى التي ينفرد فيها مع امرأة في ظلام الليل وسكونه ، على أن تخلفه عنها لم يخفف من حاله ، بل على العكس من ذلك ، كان يفسح المجال لوضوح رغباته

سطّر الرحمنُ في صفحته ... نورَه نوراً سماوياً سنيا
وأجاد الله في صنعته ... لم يدع في خلقه للنقص شيا
ليتَ شعري ما عسى جنته ... تلك حيث النفس لا تلقى رديا
طهُرتْ من نقصنا وأبتهجتْ ... من سناهُ كاملاً فيها جليا
ليتني رضوانُها أو ليتني ... ملكٌ فيها يظلُّ الدهر حيا
وأرى شخصك فيها ملكاً ... تتناجى الحب في الخلد سويا
تتناجى حُبّنا عن كثب ... ويكون الحبُّ حباً أبديا
ونرى الرحمنَ فيها أو نرى ... من يرى الرحمنَ في الخلد هنيا
فهناك المثلُ الأعلى لمن ... عَرف الأدنى من الدنيا قويا
قم إذن نسعَ إلى الروض سويا ... ياحبيبي ، فتّح الصبح فيا !
لا يطيب العيش لي منفرداً ... أوأرى وحدي جلال الحسن شيا
لو ملكت الخلد وحدي لم أكن ... لا عن النفس ولا عنه رضيا
نزعت نفسي إلى مؤنسها ... أو حبيب أجتلي منه المحيا

(الاسكندرية) عثمان حلمي

وتركزها وأخذها السبيل عليه ، فمضى وراءها والاضطراب يعصف بقلبه وصدره وكيانه ، حتى وصلا القناة فدفع لها عصاه ، ونزل وراءها فى الماء ، وغاصت أقدامهما فى الوحل ، وخرج ينفض رجليه فى العشب الممتد على حافة الحقل . وأنزلت هى جرتها وانحنت على الماء تغسل رجليها ، ثم انتصبت تصلح ثوبها ، وهو واقف خلفها يفتح رئتيه وصدره لهواء المساء العليل ، ويحاول أن ينحى عن رأسه الخواطر العاصفة التى ألهبت أليافه وهيمنت على كيانه

وواجهته وقالت بصوت ناعم :

« ناولنى ... ... »

فمد يده إلى الجرة ... فلمست يدها ، فكأنما لامسه لهب كاو ، فوقف ويده تلاصق يدها

ثم أمسك بيدها ورفعها عن الجرة ، حتى استطاع أن يقبض عليها بقوة ، فمدت وجهها مشدوهة وقالت وصوتها يرتعش :

« ناولنى ... ... »

فرفع يده إلى ذراعها وضغط ، وقد أحس بألياف لحمه تلتهب

« نـ ... ناولنى! ... »

فأبقى يده ضاغطة على ذراعها ، وهو واقف يتردد

« ما الذى تريده منى ؟ »

فلم يقل شيئاً . ثم مال عليها وضمها إلى صدره ، وضغط على جسمها فتراخى ، وحملها على ذراعيه بسرعة ، ودخل بها حقل الذرة ... ...

* * *

مشت جميلة إلى بيتها خائرة القوى ، مرضوضة الجسم ، ذاهبة اللب ، وقد اسود فى نظرها الوجود واحلولكت الدنيا ... مشت ذاهلة ساهمة لا تحس بشىء مما حولها ، ولا تعرف إلى أين هى ذاهبة ... على أن رجليها كانتا تقودانها ، بحكم العادة ، إلى بيتها . مشت تحملق فى الظلام ، وهى والهة مرتاعة ترى بعد كل خطوة شبحاً ، وتتصور عند كل قدم حفرة ... ... لقد فعلتها . . مع من ؟ مع سيد الأعمى ... لقد ساقتها قوة أزلية الى الهاوية ! لقد حملها المقدور الحتم الى الوحل ... لقد جرفها التيار فغاصت فى الوحل الى ساقيها

إننا نسير فى الطريق مسوقين بقوة أعلى منا وأقوى . قوة جارفة لا نستطيع ردها ، ولا نقوى على دفعها ، تسوقنا فى الظلام الى المصير الحتم ... لقد غدت جميلة ، فتاة الريف العفيفة الطاهرة ، المرأة الدنسة القذرة التى غاصت بقدميها فى الوحل ... سيظل الوحل عالقاً بها دائما ، وان غسلت رجليها صباح كل يوم ومساءه ، سيظل الوحل عالقاً بها أبداً

ستذكر دائماً أن قوة خفية ساقتها ، بمحض ارادتها ، الى الوحل ، قوة أعلى منها لا تستطيع فهمها ولا تحاول فهمها ولا تعليلها . هذه القوة الخفية الأزلية تعمل دائماً من وراء الحجب ، تعمل أبداً من وراء الغيب ، وتسوقنا الى المصير المحتوم

ستذكر جميلة ، الفتاة الريفية الجميلة المزهوة ، أن قوة خفية ساقتها الى البئر ، لتقودها الى الأعمى ، ولتجرفها الى الحقل

لا لذة ولا متعة ، ولا احساس بشىء من هذا كله ؛ ولكنها استسلمت ورضيت ، لأنه حكم عليها بأن تستسلم وترضى

لا احساس بنشوة ، ولا شعور بمتعة ، وانما مر كل شىء كالعاصفة الهوجاء وهى تلف كل شىء لفاً

لما فتحت عينيها على الدنيا الرحيبة الباسمة ، من قبل ، كان كل شىء قد تغير ؛ كل شىء قد تغضن واربد وعلته غشاوات ، ولفه السواد فى جلبابه ، وطوته العاصفة الرعناء فى طياتها ؛ كل شىء قد انمحى من باصرتها ومات وذهب مع العاصفة ، وبقيت ظلمات يأخذ بعضها برقاب بعض .... وعليها أن تسير فى جوف الظلام وتمضى

ستطلع شمس الصباح الجميلة على القرية الوادعة ، وستقابل القرويات ، وستتحدث وتبتسم وتضحك ، ولكن بأى وجه ؟ وأى لسان ؟ ؟ وستقابل الزوج ، عند ما يطلع النور ؛ ستواجه زوجها وتقف أمامه ؛ ولكنه لن يعرف شيئا ، ولن تعرف النسوة شيئا ، ولكنها مع هذا ستشعر بالخجل ، وتغض الطرف وتنكس الرأس ، وهى الجميلة المزهوة التى تعلو على أقرانها ولداتها

ستسير فى القرية مطأطئة الرأس ، خافضة الطرف ، لا تستطيع أن تقابل نظرة امرأة مثلها ... ستفعل ذلك ما دام الاحساس بالجريمة يلازمها ؛ وإذا ما بارحها هذا الاحساس ستنسى ، ولكنها لن تستطيع أن تنسى كل شىء . ستذكر دائما أنها فعلت ذلك بمحض ارادتها ، وكان عليها أن تقاوم وتمزق الثوب وتشق الجيب ، وتملأ الدنيا صياحا . إنها لم تأخذ شيئا ، لم تأخذ شيئا مطلقا ، وأخذ الرجل كل شىء !

ولن تذهب إلى البئر بعد اليوم ، لا فى الصباح الباكر ،

ولا فى الليل الزاحف ؛ لا وحيدة ولا برفقة أحد . كل ما تودّه الآن هو أن تنسى ، هو أن تحاول أن تنسى . كل شىء فى الحياة يتغير فى ساعة ، يتغير فى ساعة أزلية مسطورة فى صفحة حياتنا . لقد غدت الفتاة المشرقة الضاحكة الناضرة ، المرأة المشوهة المنكسرة الواجمة ... بعد ساعة مرت كالعاصفة

فتاة الريف لا تزال بخلقها البكر ، لا يزال ضميرها حيّاً ، لم تخدره بهارج المدنية الكاذبة ، إنها لا تزال ترى الأشياء على حقيقتها . لا تزال بطبعها البكر طاهرة نقية قوية الايمان عفيفة الأزار . . . تستهول الجريمة الجنسية ، وتستفظع الخيانة الزوجية ، وترجف حتى من مجرد التفكير فيها ، هكذا شعورها بفطرته ، تعرف من غير معلم ولا مدرسة أنها خلقت لرجل واحد ليس إلا . رجل واحد يأخذ منها قلبها وجسمها ، ويستغرق تفكيرها بوجودها . وتدفعها فطرتها الى أن تكون له أبداً . أما إذا زلت قدمها ، وجرفها التيار الى الوحل مرة ! فما الذى تفعله ؟ تحاول بكل ما تستطيع من قوة أن تنسى . . . لأنها لو ذكرت ربما عاودتها مع الذكرى أشياء لا تحبها ولا تود التفكير فيها

ولما أشرفت على الجسر الذى ستنحدر منه الى حيها راعها نباح الكلاب الشديد ! إنها لم تنبح بمثل هذه الشدة مطلقاً ؛ إنها تطارد فى ظلام الليل أشباحا مخيفة تروعها . وأحست بوخز الابر فى جسمها . أخذ جسمها يرتعش ، ومع الرعشة برودة الثلج . فمالت الى جدار قائم فى الطريق واعتمدت عليه دقائق . ولما رجعت اليها بعض قوتها استأنفت سيرها ، وتقدمت تسحب رجليها سحبا ، وقد آب لها بعض حسها ؛ على أن جسمها كان يشوكه مثل الشوك دائما . وأخذت عينها الترعة ، وماؤها يتدافع ويجرى . وقد تراقصت الصور فى مخيلتها واختلطت . بعد خطوات ستصل المنزل وتلاقى زوجها . وحدقت فى الماء وهو يجرى متدفقا منطلقا كالسهم ، لا شىء يقف فى طريقه ، يجرف معه دقيق الحصى والتراب ، ويحمل على متنه خفيف الريش ، لقد حملها التيار ، الى أين ذاهبة ؟ الى أين ذاهبة ؟

ما الذى سيحدث لو علم زوجها ؟ سيذبحها كما يذبح الفروج . ليس أيسر على الريفى من ذلك فى سبيل عرضه وشرفه ، وهو ثروته الباقية على الأيام . ماذا يحدث لو علم لداتها ؟ ؛ ما الذى سيحدث لو علم أقرانها اللواتى تزهى عليهن بجمالها وتشمخ ؟ سيمزقنها بألسنتهن ، وستغدو حديثهن فى كل سمر ، ومتعتهن فى كل مجلس . ما الذى سيحدث لو علم أهلها ؟ أخوها أقوى شباب القرية سيدفنها حية كما دفنت تاعسة ومبروكة وعزيزة من فتيات القرية التى حامت حولهن الشبهات ، وعفى عليهن الآن ذيل النسيان فلا يستطيع أحد أن يذكرهن لأن فى الذكرى جريمة . . . حتى ذكراهن عند القروى جريمة

ونزلت من الجسر الى الدرب الذى فى نهايته منزلها ، ومشت مستريحة الى الظلام المتكاثف . كل ما تودّه الآن هو أن تسير فى جوف الظلام متقية به أعين الناس . لقد مشت على الجسر راجفة مروعة تخاف أن يبصرها خفير الدرك ؛ ولكنها الآن فى جوف الظلام آمن وأسلم

وتقدمت فى الدرب متخاذلة متثاقلة تحس الأرض تنشق تحتها ، تصعد أكوام الرماد الملقاة عند أبواب المنازل وتهبط معها وهى تتصور أنها ترقى تل الصحراء . ولما بلغت باب البيت وقفت لحظات . . . ثم تجاسرت ودفعته

كان زوجها نائما على السطح فانتبه على حركة الباب ، وصاح بصوت جاف :

« تأخرت ياجميلة . . . »

وكان صوت زوجها يرعد . أواه ظنته نائما فاذا بعينه ساهرة ، فلم تجب ، وغضت رأسها ووقفت فى صحن البيت جامدة . ولو بصر بها زوجها لرأى أغرب صورة . ولم ينتظر جوابها فصمت ، ثم قال بعد مدة :

« اسق البقرة واعلفها . . . »

ومضت فترة قصيرة سمع بعدها بكاء عالياً ، فسأل بغضب وقسوة ، فأسخف ما فى نظر القروى بكاء امرأة :

« ما الذى جرى ؟ »

فلم ترد . . . وزاد نحيبها

« ما الذى جرى ؟ »

وانتصب وأطل من صحن البيت

« ما الذى جرى ؟ »

« الجـ ... الجر ... الجرة ... آه ... أهىء ... »

« كسرت ؟ »

« أجل ... آه ... أهىء »

« وهى تستحق كل هذا البكاء ؟ .... كفى ! »

« آه ... أهىء ... آه ... »

« كفى ... » بصوت راعد

فجبست زفراتها وغيضت عبراتها ودفنت وجهها فى حجرها ونام الزوج وغط !

* * *

زحف الأعمى الى المسجد قبل الفجر ، وهو متخاذل الجسم متسعر الجمجمة . وكانت قد ساورته فى الليلة التى خلت حمى شديدة تصبب لها عرق يملأ القرب ؛ وبات يتقلب على مثل الشوك ويود من فرط الحمى المتأججة فى جسمه من يقذف به الى اليم . بيد أنه تحامل على نفسه لما لاح النور ومشى الى المسجد متوكئاً على عصاه ، فما من الأذان بد . أجل ما من الأذان بد ! كيف يغفل عن أذان الفجر !

وصعد الى سطح المسجد ووقف ناصباً قامته ملوياً عنقه ، ويده على الساعة يتحسس بها العقرب ، حتى حان وقت الفجر فوضع يده عند أذنه وانطلق ...!! ولكن ما هذا ؟ ما الذى جرى ؟ لقد اختنق صوته واحتبس ، وأصبحت الحروف تخرج من حنجرته مصفرة عاوية عواء الذئب . ما الذى حدث ؟ ما الذى جرى ؟ حاول مرة ثانية فأخفق ، وتمهل لحظة ؛ وحاول مرة ثالثة ، فأخفق أيضاً ؛ وهبط الى صحن المسجد ، وهو يهتز اهتزاز القصبة الجوفاء فى مهب الريح العاصف ، وتقدم حتى وقف على رأس رجل نائم

« ياشيخ على . . شيخ على . . ! »

« نعم ... »

« قم أذن الفجر ... فصوتى لا يطاوعنى اليوم ... أصابنى البارحة برد شديد ... »

وبارح المسجد قبل طلوع الشمس ، وسار على الجسر حتى بلغ الحقول المجاورة . وكان قد نال منه التعب ، وبلغ منه الجهد ، فاستراح تحت شجرة من شجر السنط ، وضربه هواء الصباح على أذنه فنام حتى القيلولة . وقام وقد حميت الشمس ، وتوقدت الهاجرة ، وانقلب الهواء راكداً خانقاً يلفح الوجوه بوهج السعير ، واستوى على قدميه وأمسك بعصاه ، واتجه الى القرية ، وكل شىء فيها ساكن وادع إلا الأطفال الذين لا يقيمون وزناً ولا يبالون بحر أو برد

« أحمد ... سيد الأعمى ! »

« صحيح ؟ ... »

« والنبى ... »

وتجمع الصبية على الجسر ، ووقفوا صامتين وعلى شفاههم بسمات خفيفة ، حتى جاوزهم الأعمى ، وهو يسير سيره المألوف . ولما بعد عنهم قليلا ، رماه أصغرهم بحصاة استقرت عند صدغه . ما هذا ؟ لقد أصابته للمرة الأولى أول رمية أصغر صبى ! ما الذى جرى ؟ وانهالوا عليه بعد ذلك يدا واحدة حتى أمطروه وابلا من الحصى والحجارة . فاستدار لهم الرجل وقد تميز غيظا ، ولوح بعصاه يهدد ويتوعد ، فتفرقوا عنه واستأنف سيره بعد برهة قليلة ، واستأنفوا هم بدورهم حصاهم وحجارتهم . فما أقل الصبر عند الأطفال ! وأصابه حجر فى الجانب الأيسر من صدغه فشجه وسال الدم ، وآلمه الجرح جداً حتى خرج به عن رشده ، فدار على عقبيه وجرى وراء الصبية يضرب بعصاه يميناً وشمالاً ، ولا يبالى أين تقع وتصيب ، وهو مخبول تماماً ، حتى أصابت ضربة قوية صبياً فى رأسه فجرحته جرحاً بليغاً ، وزنا دمه الأحمر فاطلخ وجهه ؛ وكان الكلب رابضاً على الجسر فى ظل جدار لمنزل خرب ، وعينه إلى المعركة التى حميت واشتدت ، فقام ينفض جسمه نفض الليث ، وتوثب وثبات جائعة ، ثم دار دورات سريعة يقذف فى خلالها الهواء بنبار رجليه ، ثم انقض على الرجل فمزق الجزء الأمامى من ثوبه ! وطار به ، والصبية يبصرون هذا ولا يكادون يصدقون ، وشجعهم الكلب على معاودة الكرة على الرجل فانهالوا عليه ، وقد حموا ونشطوا ، يرجمونه بالحصى والحجارة ، حتى انطلق الرجل يسابق الريح . ومازالوا يتبعونه حتى أجلوه عن القرية . ولما كلت سواعدهم رجعوا الى القرية ضاحكين . وانطلق هو يجرى كالمخبول لا يلوى على شىء

* * *

وبصر القرويون فى صباح اليوم التالى وهم فى الطريق إلى سوق « المركز » بجثة ملقاة على قارعة الطريق ، فمنهم من قال إنها لسيد أعمى ؛ ومنهم من أنكر ذلك

على أن الذى نحن على يقين منه أن الرجل لم يدخل مسجد القرية بعد ذلك أبداً

محمود البدوى

٧٠٣